

فَكَاهَايَت

زيارة لندن^(١)

حدث بعضهم عن نفسه القصة الآتية قال
دعاني انحراف خفيف المّ بصحتي على اشرعنا العمل الى الاستشفاء بالثقل
وتبديل الهواء وسمحت لي الاشغال ان ازال مسقط رأسي الى امدين غير بعيد فرتبت
جميع اعمالي بحيث لا يقع فيها تعطيل في غيابي وسافرت قاصداً لندن وقد ساقني الى
زيارتها ما سمعته عنها من انها ام الدنيا في العظمة والحركة والعمل
فبلغت مرفأ لندن في صباح يومٍ راق جوهُ ورقّ نسيمُ فدهشت من كثرة
البواخر والسفن المزدحمة فيه فمنها الذاهبة والآتية ونراسية كنها قرية نل في
انتعاشها وهي تتحرك بكل انتظام فلا تصدم احداها الاخرى ولا تقف الواحدة في
طريق اختها . وما صعدت الى ال البر لا قاني عدد من خدم الأ نزل فاخترت من
بينها نزلاً واشرت الى السائق فقترب اليّ فركبت العربّة واندفعت خيولها تجري بنا
وكما دارت عجالات العربّة دورةً يزيد تعجبي من تلك المدينة العظيمة وحركتها
الباهرة الآخذة بالعقول . وبلغت النزل فوجدته من الطبقة الاولى في الابهة
والترتيب فاخترت فيه محلاً لاقائي وصرفت نهاري هناك طلباً للراحة من عناء السفر
ونفضت في الصباح التالي فخرجت من النزل وانما لا ادري الى اين اذهب
فتبعت الشارع الذي سرت فيه وما زلت انتقل من محل الى آخر حتى استوقف
نظري بيت بسيط الهيئة قرأت على بابه انه محل سيدات قد ارسدن انفسهن
لمرافقة الغرباء ممن يؤمون تلك المدينة العظيمة . ففهمت ان هذه الشركة مخصصة
لخدمة السيدات ولكنني وجدت نفسي مدفوعاً ان اطرق ذلك الباب ففعلت وفتح لي

(١) بقلم نسيب افندي المشعلاني

خادم صغير السن قادني الى غرفة رئيسة الشركة ومديرتها . ولما مثلت بين يديها رفعت قبعتي وحييت فردت تحييتي بأبتسام لطيف ثم قالت ماذا تريد ايها السيد وبماذا يمكننا ان نخدمك . قلت قرأت على باب محكم . . ثم توقفت عن الكلام . فقالت نعم واظنك اتيت راغباً في استئجار احدي فتياتنا لترافق زوجتك في زيارة لندن والتفرج عليها . فقلت لا فاني لست متزوجاً . قالت اذا الشقيقتك . قلت لا فليس لي شقيقة . قالت فاذاً لاحدي نسياتك . فقلت كلا ايها السيدة فاني غريب وحيد في هذه البلاد لا اعرف بها احداً ولا صديق لي فيها ولا رفيق . فلما مررت امام محلكم اليوم خطر لي ان اتخذ دليلاً من شركتكم فترافقني في التفرج على المدينة وتشرح لي وصف محلاتها . قالت اننا مخصصون بخدمة السيدات كما لعل ذلك لم يخف عليك ولكن بما انك غريب وحيد فلا بأس من قضاء حاجتك . ثم قرعت جرساً على مكتبها فجاء الخادم فقالت له ادع لي السيدة لوسي . قال لعلك نسيت يا مولاتي انها اخذت اجازتها امس ولا تعود قبل نهاية الاسبوع . فقالت حقاً انني نسيت ذلك ولكن لا بأس فادع لي السيدة مرغريت . قال ومرغريت ايضاً تقيدت منذ اول امس بأسرة ليدمان وستبقى معها خمسة ايام . ففكرت الرئيسة هنيهة وقالت الحق معك يا هذا واري ذاكرتي في ضعف عظيم اليوم فهل السيدة ماري هنا . قال نعم ولكن . . فلم تدعه يتم الحديث وامرته للحال ان يناديها . اما انا فلبثت انتظر وانا متعجب من نفسي لما أقدمت عليه وبعد حين فتح الباب ودخلت منه فتاة في غاية الرقة والرونق والجمال لكنها نحيفة الجسم قد ارتسم على وجهها الجميل بعض علامات الذل والمسكنة مما استوجب انتباهي الشديد اليها . فقالت لها الرئيسة يا ماري ان السيد يرغب في اتخاذ دليلاً تريه لندن ولا يوجد الآن سواك فأود ان تتفقي معه على الوقت وتكوني عند رغبته من الآن . فقالت الفتاة بصوت يأخذ بمجامع القلوب برقته ويزيده فعلاً في النفس انحناء رأسها السمع والطاعة يا مولاتي فسأذهب لابس قبعتي وقفازي وارجع في الحال . ولما خرجت تكلمت مع الرئيسة فعلمت انها تقاضى اجرة الادلاء خمسة شلينات عن الزيارة الواحدة او ثلاثة شلينات عن كل ساعة او ليرة ونصفاً في اليوم

الضياء

(١٥٥)

فاتفقت معها على استئجار الفتاة يوماً كاملاً ودفعت إليها القيمة . وماكدت افعل حتى عادت ماري متأهبةً للخروج فدهشت لدى مشاهدة جمالها المفرط ولكنني رأيت في نظرها انكساراً يدل على انها غير حاصلة على تمام السرور بهذه الخدمة . فتجاهلت ذلك وشكرت الرئيسة وخرجت تتبعني دليتي ، ولما سرنا قليلاً قالت لي الافضل ان نبدي بزيارة كنيسة وستمنستر لانها اقرب المشاهد التي فلننتظر مرور الترام الذي يوصلنا اليها . فقلت واذ لا نأخذ لنا عربة نقلنا الى هناك . قالت لان اجور العربات فاحشة في لندن اذ هي شلطان عن كل ساعة وفي الترام لا ندفع الا بنساً او بنسين . فتبسمت تبسماً خفيةً وقلت في نفسي لو عرفت الفتاة من انا وان ثروتي تقدر بالملايين لما اهتمت في التوفير علي من نفقتي ثم قلت لها انني جئت لندن بقصد التزهة فقط لا الاقامة فيها طويلاً فلا بأس من زيادة الانفاق قليلاً . واذ ذلك مررت عربة فاستوقفتها وركبتا فيها بعد ان امرت دليتي السائق ان يأخذنا الى الكنيسة المذكورة ثم جعلت تقص علي شيئاً من تاريخ النحل الذي تقصده وتشرح لي عن المنظر التي تمر بها في طريقنا . اما انا فاعجبتني عذوبة صوتها وحسن الثغائر وبلاغة تعبيرها فلم اعد اهتم بشيء سوى النظر الى جمالها والتأمل في محاسنها . وبلغنا تلك الكنيسة المشهورة فدخلناها وكانت ماري لا تضع دقيقة من الوقت دون ان تفيدني فيها وتحول نظري الى الآثار القديمة والتمائيل التي تستحق حقيقة الزيارة وتفرغ الوقت لتفرج عيني . ولما تناصف النهار شعرت بالجوع فاعلمتها بذلك وسألتها ان تدلي علي نزل تناول الغداء فيه . فقالت ولم لا تعود الى نزلك فتناول فيه الطعام الذي سيضاف على حسابك على كل الاحوال بدلاً من الذهاب الى محل آخر . فقلت لا بأس من ذلك وكما اعلمتك سابقاً انني قد خصصت لسفري هذا مائة لا تؤثر في كميتي مثل هذه الجزئيات . قالت انت وما تحب وسأوصلك الى نزل كارتون فبو قريب من هنا وهو خالص بالاشراف والاعشاء ففي اية ساعة تحب ان تعود الى خدمتك بعد الغداء . فقلت واذ لا نبفن معي فنأكل معاً . قالت لا فإن هذا النحل لا يدخله غير الاغنياء وانا است منهم فلا اقدر ان ادفع قيمة غدائي ولا ينبغي ان

احملك ذلك لان اجرتي التي دفعتها في المحل تشمل كل شيء . فقلت بل ارجوان تقبلي دعوتي ولا سيما لانني غريب اجهل عوائد البلاد وربما قدموا لي اسماً مأكلاً لا اعرفها فاودّ ان تبقي معي وترشديني في كل ذلك والحمتُ عليها حتى قبلت بالرغم عنها فدخلنا المطعم واتخذت مائدة منفردة في احدى زوايا المحل جلست اليها باراءً دليلتي وكلفتها ان تأمر لنا بالطعام . وما استقرّ بنا المقام حتى قرأت في تصرفاتها العظمة وعلمت ان في عروقتها دم اسيرة شريفة . وسافنا الحديث فاخبرتها شيئاً من تاريخ حياتي وان والديّ توفيا وتركاني صغيراً لا املك شروى تقير فاخذتني عمتي الى بيتها لتربيته وكأنها استعقلت محلي فرغبت في اهلاكي ولذلك كانت توقظني باكراً جداً في الصباح وتلقي على عاتقي جميع اشغال البيت فلا اعرف الراحة البتة واذا جاء موعد الطعام كانت ترسلني لقضاء بعض الحاجات فلا اشاركها في طعامها حتى اذا عدت رمت اليّ بعض الكسر اليابسة . وبقيت على هذا الى ان بلغت الثامنة من عمري فشعرت بارتفاع ضبابة عن بصري وعزمت على مغادرة عيشة الذل فهربت عن البيت ومازلت اجري مسرعاً طالوياً المسافات حتى خيم الليل فبت في الخلاء واستأنفت المسير في الصباح حتى بلغت بلدة أخرى وانا على آخر رمق من الجوع والاعياء . ويسر الله لي وجود شخص رثى لحالي فاخذني اليه وقدم لي طعاماً فأكلت ونمت يوماً كاملاً . وبعد ذلك سألتني عما اعرف لعله يتمكن من استخدائي فاخبرته اني لم اتعلم شيئاً في حياتي . فبرز كنفه وقال اذا لا امل في توليتك عملاً في محلي . ولما رأى على وجهي علامات اليأس والحزن قال سأخذك لتقف على باب المحل وتأخذ الرسائل الى البريد فشكرته واستلمت تلك الوظيفة للحال . وبقي كلامه يتردد في ذهني انني لو كنت متعلماً لأصبت خدمة افضل فصرفت اهتمامي الى هذه الجهة وكنت اسرق من اوقات الفراغ فادرس بنفسي وساعدني ذكائي كان على ما يظهر خلفه لي والدي فتقدمت وتعلمت ما اعرفه الآن وان يكن قليلاً . ثم فتح الله عليّ بان تمثلت طريقة تقال نفقة البترول فجعلت اهتم بهذا الاختراع حتى تمّ لي فصنعت آلة اذا وضعت على ما يستعمل فيه البترول زادت حرارته وقل مقدار الحرق منه . وماكاد يشتهر هذا الامر حتى اسرع

الضياء

(١٥٧)

اليّ التّموتّون واصحاب الشركات يعرضون عليّ مشترى هذا الاختراع بالاثمان الباهظة فلم اقبل وأخيراً وجدت رجلاً أسلفني مبلغاً من المال استغرقته في اصلاح اختراعي وابرازه للوجود فلم يبق بيت في بلادنا لم يعرفه وما تمت السنة الاولى حتى وفيت ما استدنته وبقى معي ما لا يقلّ عن ألفي ليرة وما زلت في تقدم ونجاح الى الآن ولما فرغت من الحديث وكانت دليلتي تسمعه باصغاء تامّ نظرت اليها كن يتوقع ان يسمع منها تاريخ حياتها . غير انها بقيت محافظة على كتمان امرها ولم ادرك شيئاً منها سوى تنهد عميق اندفع من صدرها حقق لي انها في شقاء . وكنت قد ملت اليها ميلاً شديداً وآليت على نفسي ان اسبب لها السعادة وعزمت ان التقي نصف اموالي بين يديها ان تحققت انها تقبله

وبعد تناول الغداء خرجنا فاقنادتني ماري الى دار الآثار البريطانية غير اني لم اشاهد بين جميع كنوزها وتحفها وغرفها وتماثيلها سوى دليلتي ماري ولم يفهم شيئاً من جميع ما قصته لي عن توارينخ ووصف ذلك المكان لاشتغال افكاري بها . ولما انتهى النهار رأيته تستعد لمفارقتي فقلت ومتى نلتقي بعد الآن . قالت لا امل في لقائنا بعد الا اذا كنت في حاجة اليّ غداً وطلبتني من الشركة كما فعلت اليوم . قلت سأفعل بدون شك ان شاء الله لانني لم ار شيئاً بعد من هذه المدينة . ولكن اخبرني هل انت متعلقة بالشركة ليلاً ونهاراً . قالت لا فاذا انتهى النهار لبثت معلقة الى الصباح الثاني . قلت اذا احتاج اليك هذا المساء لتقوديني الى الاوبرة فان هذا من واجبات الادلاء ايضاً وبما انني سأستخدمك في وقتك الخاص فعندك انت تعيين الاجرة . فصبغ الاحمرار وجنتيها وقالت أواه كنت اتنى ذلك ولكني لا استطيع الخروج ليلاً . قلت ولم أولاً تعتقدين اني شريف احافظ غايك واعاملك كشقيقتي لو كان لي شقيقة . قالت العفو يا مولاي فليس هذا قصدي ولكن لي والدة عاجزة عمياء واختاً اصغر مني لا اقدر ان اتركها وحدها ليلاً ولا سيما شقيقتي فانها اذا عدت الى البيت لا تفارقني لحظة . قلت انني بكل سرور ادعو شقيقتك لتأتي معنا ولا اظن والدتك ترفض سرور بناتها . فمسحت ماري دموعاً

انحدرت على وجنتها وقالت لا شك ان لوسي سيكون سرورها لا يقدر لو تم ذلك فانها لم تدخل الاويرة قط

واجبرت ماري على القبول فقبلت واتفقنا على ان انتظرها في النزل الى ان تذهب فتستأذن والدتها وتحضر اختها فنناول الطعام ونذهب معاً الى الاويرة . ولما ذهبت امرتُ فاكترت مقصورةً (لوجاً) وأمرت باعداد عشاء فاخر صفقت عليه الورد والزهور ثم ارتديت ثوبي الاسود ومكثت انتظر ماري حتى عادت تقود شقيقتها وهي تشبهها في كل شيء الا انها اصغر منها ودونها جمالاً

وبعد التحية جلسنا الى المائدة وكانت لوسي كثيرة الكلام بخلاف شقيقتها فجعلت تستحسن الزهور واصناف الطعام وتقول كل فكر يخطر لها فتتحققت انني استطيع ان اعرف منها ما لم اعرفه من شقيقتها . واستدرجتها في اثناء الحديث فعلمت منها ان والدها كان من اشراف انكلترا فاحب امها وتزوج بها ولما لم تكن من طبقته في الشرف استاء اهله ونبذوه والده فاضطر الى العمل ليعيش . وكان غير متدرب على الشغل وغير معتاد له فلم يكن يحصل سوى الضروري لسد حاجاته واثريه المهم والفقر فرض ومات بعد ولادة ابنته الثانية بمدة قصيرة . واهتمت الام بترية ابنتها فكانت تعمل نهاراً وليلاً حتى اصابها مرض في عينيها ففقدت بصرها وسقطت يوماً عن سلم البيت فانكسرت رجلها واصبحت في البيت ثقلاً على ابنتها ليس الا . وكانت الكبرى ماري قد بلغت الثالثة عشرة فطلبت الاستخدام لتعمل والدتها وشقيقتها فلم تجد محلاً يمكنها فيه ان تراهها في كل يوم سوى شركة الادلاء فانتظمت فيها ولا تزال الى الآن تعمل نهاراً وتجيء مساءً بما تكسبه فتنفقه في لوازم البيت من طعام وملبوس وما شاكل ذلك

وكانت كل كلمة من هذا التاريخ تفتح في قلبي جرحاً اليماً اما ماري فاجتهدت كثيراً في مقاطعة شقيقتها وتسكينها فلم تفلح واخيراً سترت وجهها بمنديلها وظهرت عليها علامات الحياء وعزة النفس وتفضيلها الموت على البؤس بما هي فيه . وشعرت بذلك فاجتهدت في ان اسري عنها وكان قد دنا موعد التمثيل فنهضنا عن المائدة

الضياء

(١٥٩)

وكانت العربية في انتظارنا فذهبنا الى الاوبرة

ولما رأيت جماعة السيدات بلباسهن الحريرية المزركشة بالذهب والحجارة الثمينة وددت ان ألبس ماري زيادة عن جميعهن وكانت هي وشقيقتها بلباسهما البسيط اجل في عيني من جميع من رأيت فكانت لوسي الصغيرة متيالة الوجه ممثلة جهوراً وكانت ماري اشبه بتاليون في جزيرة منفاهُ ينظر الى فرنسا بعين الامل فيسرهُ مرآها وعلامات الألبس على وجهه تدل انه لن يتمتع بها بعد

وبلنا نحن في منتصف التمثيل رأيت ماري قد صبغ وجهها الاحمرار وتراجعت الى داخل المقصورة فاستغربت ذلك ولكنها اعلمتني انها رأت في اسفل الاوبرة رئيسها وكانت هذه تنظر اليها بمنظارها فتراجعت ماري حياءَ لانها وهي الفقيرة في مقصورة والرئيسة صاحبة الغنى على كرسي . اما انا فلم اعلق اهمية كبيرة على هذا الامر وبقينا الى نهاية التمثيل ولما خرجنا طلبت ان اوصاهما الى بيتهما فرفضت ماري وعلمتُ انها لا تود ان ارى حقارة منزلها فوصيت السائق ان يوصاهما حيث تأمرانه وعدت الى المنزل

وفي الصباح الثاني قصدت الشركة فاستقبلتني الرئيسة وطلبت منها تجديد استئجار دايوتي يوماً آخر فاجابني بجفاء انها مقيدة مع سواي في ذلك اليوم فاذا شئت يمكنني اخذ غيرها . قلت انها حتى منتصف الليل لم تكن مقيدة مع احد فلم تمنعنيها عني . قالت وهي تكاد تميز غيظاً كنت اظنك من القصاد الذين يأتوننا ليعرضوا علينا طابائهم ولم اكن اعلم انك مدير الشركة لتناقشني على اقوالي . قلت عفواً يا مولاتي قلتي لم اقصد مناقشتك ولكني اعتدت خدمة ماري واعجبني وصفها لما تريني ايادُ فلا احب ان استعيض بسواها وان كانت مقيدة اليوم فهل تكون مطلقاً غداً . قالت لا لا فلن تكون ماري مطافةً بعد الآن الا لغارك . فصعد الدم الى رأسي ولكنني كظمت الغيظ وقلت وهل لك ان اسمحي لي بمواجهتها دقيقة واحدة . قالت كلا لن يكون ذلك برضاي . وشعرت انه لم يعد في امكاني كبح جراح الغيظ وخشيت ان يظهر مني ما لا احب امام سيدة فخرجت وقد صممت ان ابحث عن بيت ماري

حتى اجده' واواجهها في المساء وفي نفسي امور
وقضيت نهارين في البحث والتنقيب حتى اعتمدت الى بيت ماري فقرعت
الباب ولما اُذن لي في الدخول وهم لا يعلمون من الطارق دخلت فوجدت دليلتي الى
جانبٍ مستخرطة في البكا. والدتها الى الجانب الواحد صامته كانها تناجي خالقها
ولوسي الى الجانب الآخر تجتهد في تعزية شقيقتها. ولما رأني ماري نهضت وقالت
بصوت ملؤه التأثر والأسف بر بك يا مولاي اذهب عنا فقد كان طالعك علينا
سوءا. قلت ولماذا يا ترى. قالت ان دعوتك لنا بالامس ومشاهدة الرئيسة لي
في مقصورة الاوبرة ملأتها غيظاً وحنقاً. وحالما ذهبت في الغد الى الادارة استقبلتني
بالشتائم ثم طردتني قائلة ان التي تجلس في مقصورة لا تكون في حاجة الى الاستخدام
وتراني الان عادة وسائل المعيشة وما كنت لأهتم بنفسي لولا... وخنقتها العبرة
فلم تستطع اتمام الحديث. اما انا فوقفت هنيئة ثم قلت لقد صدقت الرئيسة فان
التي تكون في مقصورة لا تحتاج بعد ذلك الى الاستخدام وقد جئت الان لاغنيك
عنه بالتخاذك زوجة لي واملي ان لا ترفضيني. فنظرت اليّ نظراً اخترق صدري
وقالت لا ان هذا ليس بممكن فانت شريف غني وانا فقيرة. قلت نعم ولكنني حرٌّ
في مالي ولست كوالدك لاخشى ان يطردني ابواي واصبح فقيراً فلديّ من المال
ما يكفي لتعيش كما اود ان تكوني. وكانت لوسي تسمع فصاحت بشقيقتها اقبلي اقبلي
يا ماري فأقل ما في ذلك انك تعيظين رئيستك. وكانت هذه الكلمة سبباً لضحكي
فبسمت ماري واتخذت ابتسامها علامة القبول وبعد ان اطلعنا والدتها على ما جرى
جئت تسأل لنا البركة وتقدم لله الشكر على ارسال من يعتني بتلك الاسرة المسكينة.
وما مضت على ذلك الا ايام قلائل حتى اقترنت بماري وفي نفس الليلة قرأت
الرئيسة الخبر في الجرائد ثم جاءت مساءً الى الاوبرة فوجدتنا في مقصورة وماري
بين جمهور الحضور كالشمس يخفي نورها نور النجوم ورأت الحلي والجواهر على صدر
زوجتي وشقيقتها ففصمت بريقها

